تحذير الحاج من نواقض التوحيد ونواقصه

الأستاذ الدكتور
عبدالله بن عمر بن سليمان الدميجي





تحذير الحاج من نواقض التوحيد ونواقصه

بقلم

عبد الله بن عمر الدميجي

جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثم أما بعد:

فإن التوحيد هو أعظم الواجبات وآكد المهمات، من أجله خلقت جميع المخلوقات ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾.

ولتحقيقه أنزلت الكتب ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: 1-2]. ولذا رأى بعض أهل العلم أن في كل آية من آيات الله تعالى دليلًا على التوحيد... بل في كل شيء من المخلوقات كما قال القائل:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد (١)

ومن أجل التوحيد أرسلت الرسل ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].

وعليه قامت جميع الشرائع والرسالات ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5]، أي ما أمروا بشيء من التكاليف في هذا الوجود إلا بعبادة الله تعالى وحده، فالنفي

(١) نسبه صاحب الوفيات (7/ 138) إلى أبي نواس، ونسبه أبو الفرج في الأغاني (4/ 35) إلى أبي العتاهية. ينظر: ديوان (ص 62) ونسبه الحافظ ابن كثير في التفسير (1/ 32) لابن المعتز.



الذي يتبعه استثناء ثم إثبات يفيد قمّة الحصر والقصر، أي هم مقصورون على العبادة الخالصة، وخلقوا لأجلها لا يجوز لهم الانشغال عنها بأي شاغل، وهذا هو الدين القيم الذي يعلو ولا يعلى عليه.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ [التوبة: 31]، أي لم يؤمروا إلا بعبادة الإله الحق، فلا مألوه ولا معبود بحق إلا الله.

وهو الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [يس: 60- 61].

يقول ابن القيم رضي الله عنه: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، كلمة قامت بها الأرض والسموات، وخلقت من أجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، فهي منشأ الخلق والأمر، والثواب والعقاب، وهي الحق الذي خلقت له الخليقة، وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، وعليها نصبت القبلة، وعليها أسست الملة، ولأجلها جُرِّدت سيوف الجهاد، وهي حق الله على العباد، فهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وعنها يسأل الأولون والآخرون، فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين:

- ماذا تعبدون؟

- وماذا أجبتم المرسلين؟



فجواب الأولى بتحقيق لا إله إلا الله، معرفة وإقرارًا وعملًا.

وجواب الثانية بتحقيق: أن محمدًا رسول الله، معرفة وإقرارًا وانقيادًا وطاعة...»(١).

فجميع الشرائع الدينية إنما شرعت من أجل تحقيق التوحيد ونفي ما يضاده. فلو نظرنا إلى أركان الإسلام الخمسة على سبيل المثال، لوجدناها إنما شرعت لتحقق التوحيد وتقرره وتؤكده، فجاءت جميعها من أجل التوحيد، تذكيرًا، وتطبيقًا، وإقرارًا وعملًا، فالشهادتان مفتتحة بالتكبير المنبئ عن طرح كل من سوى الله، واستصغار كل شيء من دون الله، ناهيك بقراءة الصلاة وأذكارها الدائرة حول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

أما الزكاة فهي قرينة الصلاة في التعبد، والإقرار لله بجميع النعم وإخراجها خالصة لوجه الله تعالى، طيبة بها النفس، براءة من عبادة الدينار والدرهم، قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: 6- 7].

أما الصيام الحق فهو الذي يدع الصائم فيه طعامه وشرابه وشهوته من أجل ربه ومولاه «**الصوم لي، وأنا أجزي به**»(٢).

أما الحج ـ وهو موضوع حديثنا ـ فشعاره ودثاره التوحيد.

فالأمة كلها تبدأ مناسكها صارخة بالتلبية بالتوحيد ونفي الشرك، وتتنقل

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (1/ 34).

(٢) البخاري (ح 1894)، ومسلم (2704).

بين مناسكه ومشاعره معلنة التوحيد، متبرئة مما يناقضه.

قال الإمام الشاطبي رضي الله عنها: «نحن نعلم أن النطق بالشهادتين، والصلاة وغيرهما من العبادات إنما شرعت للتقرب إلى الله تعالى والرجوع إليه، وإفراده بالتعظيم والإجلال، ومطابقة القلب للجوارح من الطاعة والانقياد»(١).

ولا يتحقق التوحيد إلا بنفي ما يضاده، ولذا جاءت كلمة التوحيد دائرة بين النفي والإثبات (لا إله إلا الله) فالنفي وحده تعطيل، والإثبات وحده لا يمنع المشاركة. وهذا ما أكدته الآيات القرآنية الكثيرة ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: 36]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، وقال عن إبراهيم إمام الحنفاء الموحدين عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ [الزخرف: 26– 27].

ولذلك جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المحذرة مما يناقض التوحيد، وهو الشرك بكل أنواعه، أو ما ينقص كماله الواجب من ألفاظ أو أعمال أو خطرات.

فالتوحيد «ألطف شيء وأنزهه، وأنظفه وأصفاه، فأدنى شيء يخدشه، ويدنسه، ويؤثر فيه، ولهذا تشوشه اللحظة، واللفظة، والشهوة الخفية، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده، وإلا استحكم وصار طبعًا، يتعسر عليه

---

(١) الموافقات (3/ 121) تحقيق مشهور آل سلمان.

قلعه»(١).

ولذا فإن أول نهي ورد في القرآن الكريم ـ حسب ترتيب المصحف ـ هو النهي عن الشرك في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22] بعد أول أمر وهو الأمر بالتوحيد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21].

وهو أول الوصايا العشر في سورة الأنعام التي ابتدأها الله تعالى بقوله العزيز: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ ...﴾ [الأنعام: 151].

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمة فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ ...﴾»(٢).

وجاء الوعيد عليه بقطع الطمع في مغفرة الغفور الرحيم لمن تلبس بهذا الجرم العظيم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ

(١) فوائد الفرائد (ص44).

(٢) أخرجه الترمذي (ح 3070) (5/ 264) تحقيق أحمد شاكر. وقال: هذا حديث حسن غريب.



﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: 72].

ولذا عدّه النبي ﷺ أعظم الذنوب في جوابه لابن مسعود رضي الله عنه قال: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**»(١).

ومن شؤمه أنه محبط للأعمال الصالحة مهما عظمت، وقد حذَّر الله تعالى منه نبيه ﷺ والأنبياء قبله، والخطاب لأمته؛ لأنه معصوم ﷺ ومبرأ من الوقوع في ذلك كما قال البلاغيون: (الخطاب لمن يصلح له) قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: 65- 66].

قال بعض أهل العلم: «إذا كان ينهى عن الشرك من لا يمكن أن يباشره، فكيف بمن عداهم».

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88]، والشرك الأكبر محبط للعمل بالكلية. والأصغر محبط للعمل الذي داخله مع تفصيل في ذلك ليس هذا مكان بسطه، وقد قال تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٢).

وحقيقة الشرك هي تسوية المخلوق بالخالق، أو الخالق بالمخلوق،

---

(١) أخرجه الترمذي (ح 3182)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في سننه (ح3476) (2/ 290- 291)، وأبو داود (ح 2310) (1/ 705).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح 1342).

ومن ذلك أن يأتي الإنسان بخلال وأعمال خصها الله تعالى بذاته العلية، وجعلها شعارًا للعبودية فيصرفها لأحد من المخلوقين كالسجود والذبح والنذر، والاستغاثة في الشدة، قال تعالى عن المشركين في النار ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: 97- 98]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: 1].

وهو قائم على أمرين:

1- تشبيه الخالق بالمخلوق، نحو شرك أهل التعطيل من اليهود والنصارى، وأهل وحدة الوجود، والقدرية.

2- تشبيه المخلوق بالخالق، وهو جعل بعض الخصائص الإلهية للمخلوق. كالكمال المطلق والتصرف المطلق، والخضوع والتأله والتوكل والاستعانة... إلخ.

من مظاهر التوحيد في الحج والتحذير من نواقضه ونواقصه:

وكما أسلفنا فإن جميع العبادات إنما شرعت لتحقيق التوحيد والتحذير من نواقضه ونواقصه، فإن هذا المقصد يظهر جليًا في الحج، في جميع كليات هذا النسك وجزئياته. ومن أبرز هذه المظاهر ما يلي:

1- إخلاص العمل لله تعالى والتحذير من الرياء والسمعة.

وهذا ظاهر في الآيات التي فرض الله تعالى فيهن الحج وأمر به، قال الله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: 196]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران: 97]، فهو لله تعالى لا



لغيره.

وجاء تحقيق هذا المبدأ العظيم وتطبيقه من النبي ﷺ حينما قال عند إحرامه: «**اللهم لبيك حجًا لا رياء فيه ولا سمعة**»(١).

وهذا هو الواجب على كل حاج أن يجعل عمله كله خالصًا لله تعالى، وأن يتخلص من كل الإرادات الأخرى التي تقدح في نيته، وتحرمه ثواب عمله. وقد جاء في الأثر مرفوعًا إلى النبي ﷺ ـ ولا يصح ـ: «يأتي على الناس زمان يحج أغنياؤهم للنزهة، وأوساطهم للتجارة، وقراؤهم للرياء والسمعة، وفقراؤهم للمسألة»(٢).

فالحج ليس عادة موروثة، أو اندفاع لهوى جامح، أو سياحة دينية كما يسميه بعضهم يقصد منها قضاء جزءً من وقته، للتعرف على هذه المشاهد، وزيارة هذه المشاعر، والفرجة على هذه الجموع المحتشدة. بل هو عبادة خالصة لله تعالى يستجيب فيها العبد لنداء ربه تعالى ويجدد فيها توحيده وتسليمه وانقياده لله رب العالمين متأسيًا في ذلك بمن أمر الله تعالى بالتأسي بهم من أنبياء الله ورسله، وأولهم الخليلان محمد ﷺ وأبوه إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ونلحظ من الآية المذكورة آنفًا معنى آخر، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ

---

(١) أخرجه النسائي (ح 3026) (5/ 270)، كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده (ح 14793).

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخ (11/ 597)، وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (2/ 74)، وضعَّفه الألباني في الضعيفة (ح 1093).





ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ...﴾ فالآية صريحة في إتمام الحج والعمرة. بمعنى إتقان أعمال الحج، والإتيان بها كاملة من غير نقص على وفق ما شرع الله تعالى ورسوله ﷺ.

وهذه إشارة إلى الشرط الثاني من شرطي العبادة وهو أن يكون العمل صالحًا تامًا سالمًا من البدع والمحدثات ملتزمًا بهدي النبي ﷺ القائل «**خذوا عني مناسككم**»[(١)] لا عن غيره ﷺ مهما كان ذلك الغير.

هذا التنبيه جاء بعد التنبيه على الشرط الأول: وهو الإخلاص لله تعالى كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110]، قال الحافظ ابن كثير: «وهذان ركنا العمل المتقبل، لابد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ»[(٢)].

وقال الفضيل لما تلا قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: «أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إذا كان العمل خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص إذا كان لله عز وجل، والصواب إذا كان على السنة»[(٣)].

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في سننه (ح 9608)، وأصله في مسلم (ح 3137) بلفظ: «لتأخذوا مناسككم».

(٢) التفسير (5/ 205).

(٣) حلية الأولياء (8/ 95). وينظر: مجموع الفتاوى (3/ 124)، والبداية والنهاية (10/ 199).



وبهذا يتجلى في الحج التنبيه على شرطي العبادة وضرورة استحضارها في الحج، وفي كل عبادة حتى يكون عملًا متقبلًا مبرورًا، بإذن الله تعالى.

ولهذا كان من دعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا».

ونلحظ من التنبيه الأول، تنبيه وتأكيد على أصل عظيم من أصول الاستدلال في الإسلام وهو قصر التلقي عن المعصوم ﷺ فيما يبلغ عن ربه تعالى. فقال: «**خذوا عني**» وما دخلت البدع وكثر الخلاف والانحراف إلا بعد أن وسع الناس مصادر تلقيهم، وخالفوا ما أمرهم الله تعالى به ورسوله ﷺ، ففرقوا دينهم، وكانوا شيعًا، ومذاهب، وأحزابًا ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: 32].

2- كما أن الحج في جميع أعماله قائم على تحقيق قاعدتي العبودية لله تعالى العظيمتين وهما:

أ- التعظيم.

ب- التسليم.

أما التعظيم: فظاهر جدًا، ومظاهره في الحج يصعب حصرها في مثل هذه العجالة. ولكن نشير إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32]، ذكرها الله تعالى في سياق الحديث عن الحج ومناسكه.

وتعظيم الشعائر من تعظيم من أمر بتعظيمها سبحانه وتعالى، ويدخل في ذلك تعظيم بيته تعالى.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ ...﴾ [المائدة: 2].

ومن مظاهر التعظيم لله عز وجل اللهج بذكره وشكره، وجميع العبادات إنما شرعت لذكر الله تعالى، ويتجلى هذا في شعيرة الحج، فقد أمر الله تعالى بذكره عند إرادة الحج قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ [الحج: 27- 28].

كما أمر سبحانه بذكره في أثناء أداء المناسك: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: 198].

وأمر به تعالى عند انتهاء المناسك ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة: 200].

وبيَّن ﷺ أنما شرعت هذه المناسك لإقامة ذكره عز وجل فقال ﷺ: **«إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار لإقامة**



ذكر الله تعالى»[(١)].

وقد اجتمع في الحج شرف الزمان وشرف المكان. فيعظمان وفق ما شرع الله تعالى من غير زيادة ولا نقصان، لارتباط التعظيم بالتسليم، فلا نعظم إلا ما عظمه الله، ولا نعظم ما عظم الله إلا وفق ما شرع الله ورسوله.

وبتعظيم الله عز وجل في القلب يسلم العبد من جميع صور الشرك.

وأما التسليم فهو ثمرة التعظيم، وهذا يقتضي الانقياد والاستسلام لكل أوامر الله تعالى فعلًا وتركًا، وعملًا وتصديقًا، وهو معنى الإسلام الحقيقي ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: 22]. وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 112]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 71].

والحج دورة تدريبية في وجوب تسليم العبد لربه عز وجل في كل شيء من غير تردد ولا اعتراض، فيلتزم التسليم في زمان الحج ومكانه وشعائره وهيئات أدائها بالكمية والكيفية المحددة من غير زيادة ولا نقص. فلكل شعيرة زمان ومكان وكمية وكيفية لا يجوز للحاج تجاوزها ولا التقصور عنها، وإن لم تظهر له الحكمة من ذلك، فلا مجال للاستحسان ولا للرأي،

---

(١) أخرجه أبو داود (ح 1888)، والدارمي في المناسك (36)، وأحمد في المسند (6/ 64).



ولا للاعتراض باسم المصلحة أو غير ذلك من وسائل اعتراض أهل الأهواء.

وهذا التعظيم والتسليم في الحج يجب أن يكون ديدن المسلم ومنهج حياته كلها ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162، 163].

وكما حققه في الحج، فيجب أن يحققه في جميع شؤونه التعبدية والتعاملية في شؤونه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية.

فيسلم بذلك من عبادة الهوى والشيطان بطاعتهما في معصية الله قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 60، 61]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23]. قال الحسن: «هو الذي لا يهوى شيئًا إلا ركبه». وقال قتادة: «هو الذي كلما هوى شيئًا ركبه، وكلما اشتهى شيئًا أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى»(١).

ومعلوم أنهم لم يكونوا يسجدون للشيطان ولا للهوى، ولا يقدمون لهم القرابين، وإنما كانوا يطيعونهم في معصية الله، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ

(١) الدر المنثور للسيوطي (7/ 426). وينظر: تفسير البغوي (4/ 126).

أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: 121].

وأصول المعاصي كلها قائمة على أصلين رئيسين:

١ - تعلق القلب بغير الله.

٢ - طاعة غير الله واتباعه في معصية الله، ولذلك فمن كان بالله أعرف كان له أخوف.

كما أن الحاج بتحقيقه للتسليم لله تعالى يسلم من كل صور الابتداع في الدين بالزيادة والنقصان، وقد حذر من ذلك النبي ﷺ أمته، كما حذره ربه تبارك وتعالى بقوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾ [هود: 112]، أي لا كما تهوى أو ترى أو تستحسن بعقلك، بل ﴿ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾ يعني من ربك تبارك وتعالى. ولذا قال ﷺ: «**وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلاة في النار** »[١]، وبيَّن ﷺ أن كل تعبد وتقرب إلى الله تعالى على خلاف أمر النبي ﷺ فهو مردود على صاحبه: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[٢]، و«**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٣].

3- **ومن مظاهر التوحيد في الحج التلبية** (لبيك اللهم لبيك لبيك لا

---

(١) أخرجه الترمذي (ح 2676) (5/ 44) وقال: حسن صحيح، وأخرجه أبو داود (ح 4607)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (ح 2549).

(٢) أخرجه البخاري (ح 2697)، ومسلم (ح 1718).

(٣) أخرجه مسلم (ح 1718).

شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)[١].

هكذا كانت تلبية النبي ﷺ، فهي إعلان وتجديد للتوحيد، ولذلك قال جابر رضي الله تعالى عنه في وصفه لحجة النبي ﷺ: «فأهل بالتوحيد »[٢]، وإعلان البراءة من كل شريك لله تعالى (لا شريك لك).

فعلى الحاج أن يعي معنى هذه التلبية، وأن يلتزم بموجبها وهو تحقيق التوحيد الخالص لله تعالى. والبراءة من كل ما يقدح في هذا التوحيد من جميع صور الشرك الصغير والكبير، في الألفاظ والأعمال والمعتقدات. وأن يعود من الحج خالصًا مخْلصًا لله تعالى، ومُخَلَّصًا من كل أدران الذنوب والخطايا والشركيات التي قد يقارف شيئًا منها وهو لا يعلم. فعليه مراجعة سائر عباداته وأعماله ويخلصها من كل شائبة تحول دون قبولها.

4- **ومن مظاهر التوحيد، إعلان الشهادة بالتوحيد في يوم عرفة**، كما قال ﷺ: «**خير الدعاء دعاء عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**»[٣].

فهي كلمة الإخلاص بجدد بها توحيده، كما جدده عند دخوله النسك بالإحرام بالتلبية، وإعلانه البراءة من كل صور الشرك. والاعتراف له سبحانه بالملك والتدبير والتصرف، وله المحامد كلها، والتسليم لقدرته تعالى المطلقة. فلا حول ولا قوة إلا بالله، فلا يلتفت إلى أحد سواه في قضاء

---

(١) أخرجه مسلم (ح 1218).

(٢) المصدر نفسه (ح 1218).

(٣) أخرجه الترمذي (ح 3585)، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح 2837).

حاجة، أو دفع مكروه، أو جلب مصلحة، فالله وحده هو الذي على كل شيء قدير.

وهذا التوحيد الخالص يتكرر إعلانه وتجديده في جميع المشاعر عند المشعر الحرام، وبعد رمي الجمرات الوسطى والصغرى وعند الطواف والرقي على الصفا والمروة والسعي بينهما وغير ذلك.

5- كما أن من مظاهر التوحيد إعلان التكبير لله عز وجل (الله أكبر) يوم النحر (يوم الحج الأكبر) وعند رمي الجمرات. وهذا إعلان لتحقيق التعظيم المشار إليه آنفًا، فالله أكبر من كل شيء في الوجود مهما كان. وإذا تحقق هذا المعنى في قلب الحاج فهل يليق به أن يلتفت إلى غيره تعالى في استعانة أو استغاثة أو جلب مصلحة أو دفع مضرة؟!

وبهذه المعاني يسلم الحاج من الالتفات إلى من سوى الله تعالى من نبي مرسل أو ملك مقرب. لأن (الله أكبر!!) وقد أعلنها صريحة على رؤوس الأشهاد.

6- ومن مظاهر التوحيد البراءة من كل أعمال الجاهلية وخصالهم، بل وتعمد مخالفة المشركين في جميع شؤونهم فقال: «هدينا خير من هديهم»(١).

وهذه البراءة ظاهرة في العديد من المواقف في الحج، فإضافة إلى إعلانها في التلبية وكلمة الإخلاص المشار إليهما آنفًا، فهي تتجلى فيما يلي:

(١) صحيح مسلم (ح1218).



أ- أن النبي ﷺ بدأ بتطهير بيت الله العتيق من جميع مظاهر الأصنام الحسية، وذلك بتحطيم الأصنام التي كانت للقبائل بسهمه ﷺ وإخراج ما كان منها داخل الكعبة، وتلاوة قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: 81] (١).

ب- في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة: 199] الذين كانوا على ملة إبراهيم عليه السلام. وهذا إعلان بمخالفة مشركي قريش الذين كانوا يقفون دون عرفة على حدود الحرم ويقولون: لا نفيض إلا من الحرم (٢)، فقال ﷺ وهم وقوف بعرفة: «**كونوا على مشاعركم، فإنكم على إرث إبراهيم**»(٣).

ج- وكذلك إعلان البراءة من خصال الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية وغيرها التي أشار إليها النبي ﷺ في خطبة عرفة. ومنها: «**ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضًا في بني سعد، فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله...**»(٤)، فعمّ ﷺ ثم خص.

د- ومنها إفاضته من عرفة بعد مغيب الشمس، ومن مزدلفة قبل

(١) صحيح البخاري (ح 4287).

(٢) البخاري (ح 1665)، ومسلم (ح 1219).

(٣) سنن ابن ماجه (ح 3011) وصححه الألباني برقم (2438) من صحيح سنن ابن ماجه.

(٤) صحيح مسلم (ح 1218).



طلوعها، وكان المشركون على عكس ذلك، يفيضون قبل الغروب من عرفات، ومن مزدلفة بعد الشروق (١).

هـ - مراغمة المشركين بإظهار شعائر التوحيد في الأماكن التي أظهروا فيها الشرك حتى قال ابن القيم: «وهذه كانت عادته صلوات الله وسلامه عليه، أن يقيم شعار التوحيد في مواضع شعائر الكفر، كما أمر النبي ﷺ أن يبني مسجد الطائف موضع اللات والعزى»(٢).

بل قال رضي الله عنها: «إن الشريعة قد استقرت ـ ولاسيما في المناسك ـ على قصد مخالفة المشركين»(٣).

و- وأكد ذلك كله بتحريم دخول المشركين والكفار مكة، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ﴾ [التوبة: 28]، وتنفيذًا لهذا الأمر الإلهي بعث النبي ﷺ أبا بكر الصديق في العام التاسع ليؤذن في الناس: «**ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان**»(٤).

7- ومن مظاهر التوحيد في الحج: النحر لله تعالى، ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ

(١) السنن الكبرى للبيهقي (5/ 125)، والمستدرك (2/ 304) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) زاد المعاد (2/ 194، 195).

(٣) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (5/ 146).

(٤) صحيح البخاري (7/ 279).

﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ [الكوثر: 2]، وذلك بذبح القرابين يوم النحر، وأيام التشريق لله تعالى وحده، وجعلها النبي ﷺ من أفضل أعمال يوم العيد بل سمي «يوم النحر» لكثرة ما ينحر فيه من القرابين لله تعالى، وقد أهدى ﷺ مائة بدنة [(١)]، ونحر بيده الشريفة ثلاثًا وستين بدنة [(٢)]، وأمر عليًا رضي الله عنه أن يقسم بدنه على الفقراء والمساكين: لحومها وجلودها وجلالها [(٣)].

وفي هذا تحذير للحاج من الذبح لغير الله تعالى على سبيل التقرب كالذبح لغير الله تعالى من الجن أو الأولياء أو غير ذلك من صور التقرب بسفك الدماء. فالذبح عبادة لا يكون إلا لله تعالى وصرفها لغير الله شرك.

ولا يدخل في هذا الذبح من أجل أكل اللحم أو إكرام الضيف ونحو ذلك، فهذه لا تدخل في جانب التعبد والتقرب للمذبوح له كما لا يخفى.

8- **وكذلك الطواف بالبيت العتيق** . وهو أول ابتداء أعماله ﷺ وختام أعماله حيث قال ﷺ: «**لا ينفرن أحدكم حتى يكون آخر عهده بالبيت**»[(٤)].

وفيه من التحذير من قوادح التوحيد ونواقصه:

أ- أنه لا يطاف ببنية أو بقعة على وجه الأرض على سبيل التعبد إلا هذه البنية (الكعبة المشرفة) وكل طواف بقبر أو ضريح أو مشهد أو بقعة على

---

(١) صحيح البخاري (ح 1718).

(٢) سنن ابن ماجه (ح 3074).

(٣) صحيح مسلم (ح 1317)، والجلال: ما يجعل على ظهر الدابة لتصان به.

(٤) صحيح مسلم (2/ 963).





سبيل التعبد فهو مظهر من مظاهر الشرك المحرم.

ب – أنه لا يقبّل ولا يستلم من الأحجار ونحوها على سبيل التعظيم والتعبد إلا الحجر الأسود كما كان يفعل ﷺ، ومع ذلك فيفعل ما فعله النبي ﷺ على سبيل الاقتداء والتأسي فقط كما قال عمر رضي الله تعالى عنه: «والله إني لأعلم أنك حجر أسود، لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»(١).

ج – مع تعظيم النبي ﷺ لمقام إبراهيم فلم يزد عليه الصلاة والسلام على ما أمر الله تعالى به من اتخاذه مصلى. قال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ [آل عمران: 97]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة: 125]. فصلى عنده النبي ﷺ وأكد التوحيد بقراءة سورتي الإخلاص في الركعتين ولم يقبله ولم يستلمه، قال قتادة: «﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ إنما أمروا بالصلاة عنده، ولم يؤمروا بمسحه...»(٢).

فإذا كان هذا في حق مقام إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء فكيف بغيره من المقامات والأضرحة والقبور، وأكثرها كذب وافتراء. فدل على أن الحج مدرسة للتوحيد في كل جزئياته ومناسكه.

9- ومن مظاهر التحذير من قوادح التوحيد ونواقصه النهي عن الغلو واستثمار الحج في التحذير من أكبر أسباب الشرك وهو الغلو في حجم

---

(١) صحيح البخاري (3/ 462).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (2/ 35).



حصى الجمار فقال ﷺ: «**بمثل هذا فارموا وإياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**»(١).

وهذا ما أرشد إليه تعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: 77]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: 171].

والغلو هو مجاوزة الحدّ في التعبد والعمل والثناء قدحًا أو مدحًا.

وأكبر وقوع الشرك هو من جهة الغلو في الصالحين، وهو أول شرك بني آدم، ولذلك جاء تحذير النبي ﷺ منه في هذا الموسم العظيم حماية للتوحيد وذلك من عدة أوجه:

أ- تحذير النبي ﷺ الصريح من ذلك.

ب- بيان أنه سبب هلاك الأمم السابقة.

ج- أنه ذريعة إلى الشرك كما أسلفنا، ولذلك فهو بعيد عن تعظيم الله ويؤدي إلى عبادة المغلو فيه حيًا كان أو ميتًا.

ولذلك تدرج الشيطان بأتباعه في الغلو في قبور الصالحين فسلك معهم ما يلي:

---

(١) أخرجه ابن جرير (3/ 35) بإسناد صحيح.

أ- يلقي إليهم أن البناء على قبورهم والعكوف عندها من محبة الصالحين أهل القبور، وإجلالهم.

ب- ثم ينتقل بهم إلى أن الدعاء عندها مستجاب.

ج- ثم ينقلهم إلى الدعاء بهم، والإقسام على الله بهم لما لهم من جاه عند الله.

د- ثم ينقلهم إلى دعائهم مباشرة، وسؤالهم الشفاعة وقضاء الحاجات وكشف الكربات.

هـ- ثم المرحلة الأخيرة بنقلهم إلى دعاء الناس إلى عبادتهم من دون الله، واتخاذ قبورهم أعيادًا ومناسك.

وعليه فإن من ثمرات الحج المقبول عند الله تعالى أن يرجع الحاج إلى أهله بعد أن منَّ الله عليه بأداء الحج، وقد جدد إيمانه وقوَّاه، وحقق التوحيد ونَقَّاه، وتخلص من أوزار الذنوب وآثارها «**فمن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**»[١]. فيرجع بعقيدة صافية صحيحة، يحمل حقيقة العبودية الخالصة التي ذاق طعمها وباشرها في تلك البقاع الطاهرة، ولذة الطاعة للواحد القهار، دون التفات إلى أحد سواه أو توسل بميت، أو اتخاذ الوسائط بينه وبين الله، وهذا هو الهدف الأسمى من أداء هذا النسك العظيم، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: 26].

(١) البخاري (ح 1773)، ومسلم (ح 1349).

فعلى كل مسلم بعامة، وعلى كل حاج بخاصة أن يحمد الله على أن يسر له أداء هذه الفريضة، وعليه تجريد العمل لله سبحانه، وإخلاصه له جل وعلا، وعلى الإقلاع عما قد يكون وقع منه قبل حجه من صور الشرك صغيره وكبيره، وهو يعلم بذلك أو لا يعلم، ومن الدعاء المأثور الذي روي أن النبي ﷺ علّمه أبا بكر رضي الله تعالى عنه: «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلمه، وأستغفرك لما لا أعلمه**»(١). وكان من دعاء أبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: 35- 36]. قال إبراهيم التيمي رضي الله عنه: «ومن يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم!»(٢) يعني من الوقوع في الشرك. ما دام إمام الموحدين و محطم الأصنام بيده الشريفة يخشى من الشرك وعبادة الأصنام، فمن يأمن بعد إبراهيم.

تقبل الله من الجميع الصالحات، وجنبنا وإياهم سائر الذنوب والخطيئات، وجعل حجهم مبرورًا، وذنبهم مغفورًا، وسعيهم مشكورًا.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي كما في تفسير القرطبي (11/ 71) وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (13/ 228)، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (5/ 46).

